المشهد

العدد 333 - السنة الثانية عشرة - الأحد 12 نوفمبر 2023 م - 28 ربيع الآخر 1445هـ

قالت العرب

ويجعل حاضري غدها أعزّ عليّ من روحي / وأنسى بعد حين في لقاء العين
بالعين بأنّا مرة كنّا وراء الباب إثنين / كلامك كان أغنية وكنت أحاول الإنشاد و
لكن الشقاء أحاط بالشفة الربيعيّة

أجهزة الاستخبارات تعانى ضعفا فى الكفاءات البشرية

التنبؤ والاستشراف الأداة الرئيسة لاستباق المستقبل. وفى المجتمعات الحديثة، تمثل أجهزة الاستخبارات أداة الدولة الرئيسة فى استباق المخاطر الأمنية من خلال جمع وتحليل المعلومات، وإنتاج استخبارات، تسهم بشكل رئيس فى اتخاذ قرارات معينة أو إنشاء مبادرات من شأنها استباق التحديات أو تخفيف آثار التهديدات فى حال وقوعها.

حرب الفوكلاند بين بريطانيا والأرجنتين 1982

فى دراسة د.محمد العربى حول «الاستخبارات الاستباقية»

تحليل البيانات هو نوع من حل الأغاز ووفرتها أو تضاربها قد يكون مربكا لصانع القرار

محللو الاستخبارات يعملون فى عالم مغلف باللا يقين والفوضى والتعقيد لتقديم توقعات وتنبؤات لصانع القرار

العزو السوفيتي لأفغانستان في 1979

الوكالات المتنافسة تقوم بـ"تجزئة المعلومات الاستخباراتية"وتتعامل كل منها مع الأجزاء التى تخصها ما يسبب الكوارث

تحليل الاتجاهات المستقبلية يشحذ قدرة المحللين على "التنبؤ" من خلال استكشاف «نقاط التحول» قبل نموها

انطلاقا من هذه الرؤية تسعى هذه الدراسة "الاستخبارات الاستباقية.. التنبؤ وبناء سيناريوهات الأمن القومي» للباحث د.محمد العربى الصادرة عن مركز المستقبل بأبوظبي، إلى توضيح طبيعة وظيفة "التنبؤ"، وموقعها المركزى فى وظائف مجتمع الاستخبارات الحديثة بمنظماته المختلفة، واختلاف نطاق عملها، كما تتناول أيضا المقاربات التقليدية فى الاضطلاع بهذه الوظيفة والتى ارتبطت بالأدوات التقليدية فى جمع ومعالجة وتحليل المعلومات الاستخباراتية، وكذلك الاتجاهات الجديدة فى التنبؤ الاستخباراتي، والتى أخذت فى الظهور، مع تعقد نماذج التحليل والظواهر واتساع نطاق عمل أجهزة الاستخبارات، ومن ثم انفتاحها على مقاربات الاستشراف الحديثة مثل التنبؤ الفائق، وحشد المصادر وإدماج الذكاء الاصطناعي.

يرى العربى أن تحليل البيانات التى يتم جمعها بطرق ووسائل مختلفة من قبل جهاز الاستخبارات الأجنبية فى الدولة "س" حول أنشطة معادية أو تمس الأمن القومى تقوم بها الدولة "ص" هو نوع من حل الألغاز، وأحيانا تكون الصورة واضحة، إلا أنها فى أحيان كثيرة قد تكون مربكة لمتخذ القرار، خاصة مع تضارب البيانات، أو توفر حجم هائل من المعلومات، بما يصعب استقراء مضمونها. وتعتبر المشكلة الأساسية فى هذه المرحلة هى تمييز الحقائق عن التقديرات الشخصية أو المتحيزة، وعلى محللى الاستخبارات هنا إبعاد تقييماتهم عن التحيزات السياسية أو الحزبية، فضلاعن الثقافية أو التاريخية. وأحد التحديات الحالية التى تواجه هذه العملية ليس نقص المعلومات بل كثرتها على نحو قد يعوق التوصل إلى تقديرات موضوعية أو محايدة..

ويضيف "يقع فى نطاق عمل محلى الاستخبارات "تقييم واستباق" التطورات الممكنة فى الشؤون الدولية. سواء كانت الجوانب الاقتصادية أم السياسية أم الأمنية أو تلك المتعلقة بالقيادات السياسية فى البلدان المعنية. ولا يقتصر تحليل المعلومات الاستخباراتية على وكالات الاستخبارات المعنية بالخارج فقط، فبعض جهات الأمن الداخلى لديها محللون أمنيون. ويقدم المحللون "تقديرات" مكتوبة لصانع القرار من خلال التسلسل القيادى لأجهزة الاستخبارات. وتأخذ هذه التقديرات شكل "مختصر سياسات"أو "المختصرات اليومية" حيث يتم إرسالها إلى صناع القرار بشكل يومى فى حال عدم وجود أزمات، حيث يزداد معدل هذه المختصرات مع كل تطور. وأحيانا يأخذ المنتج التحليلى شكل مؤشرات وتحذيرات؛ حيث يركز على الخطوات المتخذة من قبل بعض الأطراف فى الداخل أو الخارج على مصالح الدولة الحيوية. ولا يخاطب المحللون الرؤساء المباشرين وحدهم؛ فبعض التقديرات ترسل مباشرة إلى الوزراء، والأخرى إلى الجيش أو الدبلوماسيين؛ خاصة لو كانوا فى سياق تفاوض دولى وفى هذه المرحلة تأتى "التنبؤات الاستخباراتية".

ويؤكد إن"التنبؤ" يمثل المحك الأساس الذى يقاس على أساسه مدى نجاح أو إخفاق أجهزة الاستخبارات، فقدرة الجهاز على توقع حدث أو نفى آخر هو المعيار الرئيس للحكم بكونه يقوم بكامل مهامه، على الأقل فى نظر السياسيين وجهات الرقابة البرلمانية، فضلا عن دوائر الإعلام والصحافة، وإن كان التنبؤ الوظيفة الوحيدة التى تقوم بها وكالات الاستخبارات، إلا أنه بمثابة قمة جبل الثلج التى تخفى تحتها وظائف أعمق".

معضلات التنبؤ

وحول معضلات التنبؤ الاستخباراتى يقول العربى «ليس التنبؤ بالمهمة السهلة، خاصة عندما يتعلق بالأمور الأكثر حساسية وأهمية لأمن الدول ومصالحها.وتجد أجهزة الاستخبارات ومحللوها أنه من الضرورى ملاحقة التطورات ومراقبة التحديات المتداخلة، لكى تصيب فى تقدير الأمور، ولكى تقوم بوظيفتها فى خدمة صانع القرار. وبشكل عام، يعمل محللو الاستخبارات فى عالم مغلف باللا يقين والفوضى والتعقيد، من أجل إخراج تقديرات تفسر الأحداث التى يتعرضون لها، وتقدم توقعات وتنبؤات لصانع القرار .إن "وضعية اللا يقين" تختلف عن "التعامل مع المخاطر"؛ فبينما تشير المخاطر إلى "معرفة صناع القرار والمحللين بالآثار المترتبة على القيام بخطوة ما، كما هو فى حال لعبة الشطرنج، أو اتخاذ قرار ما، فإن اللا يقين نطاقه أوسع من المواقف ذات الاحتمالات والآثار غير المعروفة، والتى يتعذر الإلمام بها بدقة، وتأتى وظيفة التنبؤات كمحاولة لتقليل مساحة اللا يقين وليس القضاء عليها.

ويتوقف العربى محللا للمعضلات التى تواجه الوظيفة التنبؤية للاستخبارات، ومنها: طلب صناع القرار لنتائج محددة، وتحمل الاستخبارات أعباء الإخفاق، ففى حال إخفاق سياسة الدولة، غالبا ما تقدم أجهزة الاستخبارات ك"كبش فداء" للإخفاق؛ حيث يتم تصوير الإخفاق باعتباره "فشلا استخباراتيا".

تعقد الظواهر

حيث أصبح التنبؤ أكثر صعوبة فى عالم اليوم بسبب التعقد والتداخل الشديد بين الظواهر، الأمر الذى وصل إلى حد الفوضى. ويشير إلى أن أجهزة الاستخبارات بأفرعها المختلفة، فضلا عن وكالاتها المتنوعة والمتنافسة، تقوم على مبدأ "تجزئة المعلومات الاستخباراتية". ونظرا لكونها أجهزة بيروقراطية، فإن المحللين لا يتعاملون إلا مع الأجزاء التى تخصهم وتخص وكالاتهم فقط من الصورة، وبالتالى فهم ليس بمقدورهم الإحاطة بجوانب التطور أو الحدث أو القضية، التى قد يرى المديرون أو السياسيون أنها خارج تخصصهم. ومن هنا، تكون تقديراتهم حتما منقوصة أو تعالج جوانب محددة، فيما يتولى المخططون تجميع الصورة الأكبر. وقد يتخذ هؤلاء قرارا سياسيا باستبعاد أو تأكيد بعض التقديرات دون أخرى. وقد تنطوى مخاطر التجزئة هذه، وما ينتج عنها من تنافس داخل وعبر الوكالات الاستخباراتية، على كوارث محققة. والمثال الأبرز فى هذا السياق ما كشفت عنه لجنة التحقيق فى أحداث ١١ سبتمبر من فجوة فى التواصل بين وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفدرالية، والناتج عن التنافس طويل الأمد؛ حيث لم يشارك المكتب الوكالة المعلومات شبه المؤكدة لديه، حول إمكانية وقوع هجمات ينفذها متطرفون تابعون لتنظيم القاعدة.

ويوضح العربى أن تحليل الاتجاهات المستقبلية يشحذ قدرة المحللين على "التنبؤ" من خلال استكشاف "نقاط التحول" قبل نموها. إلا أن منطق الاستخبارات فى عالم ما بعد الحرب الباردة، والتغير المتسارع يدفع أغلب الموارد والجهد نحو التركيز على المتغيرات الآنية، وإنتاج تقديرات قصيرة المدى ومباشرة للرد على تطور ما. ويطلق على هذه الحالة طغيان المخصصت فى مقابل رصد الاتجاهات المستقبلية، حيث يجعل طغيان المخصصات المحللين يلهثون وراء التطورات التى قد تغطى على القضايا الأهم، وفى مواجهة ذلك، تحاول أجهزة الاستخبارات خلق التوازن بين القضايا المستمرة والمخصصات.

ويكشف أن أجهزة الاستخبارات تعانى ضعفا فى الموارد البشرية، وقد يكمن ذلك فى ضعف القيادة المؤسسية أو خضوعها للقيادة السياسية؛ أو فى تراجع القدرات الثقافية والفكرية للمحللين. وقد اتضح هذا التراجع فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر؛ حيث توسعت أجهزة الاستخبارات فى التوظيف دون التدقيق فى خلفية المعينين، بفعل ضغط ظروف الحرب على الإرهاب، فى الوقت الذى تراجع فيه عدد المتخصصين من حملة الشهادات العليا، وهو ما أدى لتدهور المرجعية الثقافية للمهنة، التى عرف عن أصحابها على مر التاريخ المستوى الفكرى العالي، وإتقانهم اللغات الأجنبية والآداب. وقد تتجسد نتائج ضعف الموارد البشرية فى تراجع دراسة أجهزة الاستخبارات للنماذج التاريخية الضرورية لفهم الواقع الحالي. مثال، يرى ديفيد أوماند، المدير السابق لمكتب الاتصالات الحكومية البريطانى "GCHQ"، أن الاستخبارات الغربية أخفقت فى قراءة نيات الرئيس الروسى فلاديمير بوتين، بشكل صحيح عندما اختار التدخل فى شرق أوكرانيا، وقام بضم القرم فى مارس ٢٠١٤ على الرغم من تشابه الاستراتيجية المستخدمة من خلال "الرجال الخضر الصغار"، مع الاستراتيجية التى وظفها يورى أندروبوف رئيس جهاز الاستخبارات السوفيتية السابق، للتدخل فى تشيكوسلوفاكيا للقضاء على النظام الإصلاحى لألكسندر دوبشيك عام ١٩٦٨، وفى هذا الموضع ، فإنه من الضرورة بمكان الإشارة إلى مستويات أكثر تدهورا فى نتائج أعمال أجهزة الاستخبارات فى البلدان التى تشيع فيها أشكال الفساد المؤسسى وتراجع الكفاءات.

تعقيدات مؤسسية

ويلفت العربى إلى أن العملية الاستخباراتية قد تعانى تعقيدات مؤسسية، تأتى فى أشكال عديدة، من بينها وجود تنافس بين الأجهزة، بما يجعل تقاريرها متضاربة وغير قابلة للتصديق، أو عرضة للتشكيك. وربما الحالة الأبرز فى هذا السياق إحجام إدارة باراك أوباما عن اتخاذ سياسة أكثر فعالية تجاه تدهور الأوضاع فى سوريا والعراق، ما أدى لظهور تنظيم "داعش". فبعد سلسلة من المداولات مع الإدارة، كتب السفير الأمريكى السابق فى سوريا، روبرت فورد، فى أواخر عام٢٠١٢ ، تحذيرا مباشرا للبيت الأبيض من إمكانية انتقال عدد كبيرمن المقاتلين التابعين للقاعدة من العراق إلى سوريا، وانضمام المقاتلين الأجانب، واستيلائهم فى النهاية على مساحة واسعة من الأرض مع تراجع السلطة المركزية فى دمشق، وعودة التمرد السنى على حكومة نورى المالكى فى بغداد. وكان الحل الذى كان يدفع فورد تجاهه هو تسريع عملية تسليح المعارضة السورية، ممثلة فيما يسمى الجيش السورى الحر، ليكون بديلا أكثر اعتدالا للمعارضين الراغبين فى الإطاحة بنظام الأسد.

فى تلك الحالة، جاء التحذير من خارج مجتمع الاستخبارات. ولم تفلح الاستخبارات المركزية فى معالجته بسبب تردد إدارة أوباما فى اتخاذ خطوة "أكثر فعالية" فى التعامل مع نظام الأسد، خاصة بعد إلغاء الرئيس باراك أوباما لأمر الضربات العسكرية ضد نظام الأسد، بسبب التقارير الواردة عن استخدامه لأسلحة كيميائية ضد مدنيين سوريين فى كرم الزيتون وتوافقه على حل دبلوماسى مع روسيا، يقضى بتسليم دمشق للأسلحة الكيميائية.

وقد أظهرت هذه الحالة تنازعا بين مجتمع الاستخبارات والإدارة الأمريكية، ففى حين أشارت الإدارة إلى أن الاستخبارات فشلت فى توقع صعود التنظيم، فقد رفضت وكالة الاستخبارات المركزية هذه الاتهامات، وأكدت أن كافة تقديراتها حول التنظيم منذ وجوده فى العراق تحذر من مخاطر توسعه.

ويتابع العربى أن العمل الاستخباراتى ارتبط منذ البداية بالتطور التكنولوجي، خاصة فيما يتعلق بعمليات جمع المعلومات، من خلال المراقبة ومسح الإشارات، والصور التى يتم جمعها عبر الطائرات المسيرة وأجهزة الاستشعارعن بعد وغيرها؛ إلا أن التطور الحادث الآن فى الخوارزميات وتحليل البيانات الكبرى، يبشر بمشاركة الآلات أيضا للمحللين البشريين فى عملهم ضمن عملية الاستخبارات.

ويرى أن دعاة الدمج بين العمل البشرى والآلات يرون أن توظيف الذكاء الاصطناعى فى التحليل الاستخباراتى بإمكانه تعزيز "دقة" التنبؤات والتقديرات، من خلال الكشف عن النقاط التى يصعب على الإدراك البشرى تحديدها، ومن ثم تعزيز قدرة المحللين على إصدار التحذيرات والإنذارات المبكرة، ومن ناحية زيادة قيمة المدخلات البشرية فى عملية التحليل. أى من خلال منح المحللين البشر المساحة للتركيز على مدخلات أكثر قيمة بدلا من التركيز على إشارات مجزأة. وقد بدأ برنامج إياربا، منذ منتصف العقد الماضي، إطلاق مشروعات لتعزيز التنبؤ الفائق، من خلال توظيف الذكاء الاصطناعي. وتوسع البرنامج لاستخدام الحوسبة الكمومية وتقنيات التعرف إلى الوجوه وبرامج الترجمة العالمية وغير ذلك من تقنيات، قد نجدها معروضة فى أفلام السينما الأمريكية، وبالتالي، تستطيع هذه البرامج أن تخترق كل حزم البيانات الخاصة بالأفراد، بما فى ذلك تفاعلات الأفراد على فيسبوك وتويتر ويوتيوب وكل استخدام لخاصيات الاستشعار عن بعد، وكل بحث على محركات البحث وكل مقطع مصور، وكل حجز إلكتروني، وكل ما يمكن أن يمحو المفاجأة من على مائدة الاستخبارات.

تعزيز التنبؤات

ويحلل العربى مشروعات إياربا التنبؤية التى أطلقها برنامج إياربا لتعزيز التنبؤات الاستخباراتية، من خلال الدمج بين الذكاء البشرى والذكاء الاصطناعي، ومنها:

- أولا مشروع ميركوري: أطلق برنامج إياربا، فى ١١ يوليو ٢٠١٨ تحدى "ميركوري" والذى يسعى إلى تقديم حلول وأدوات تحليل ابتكارية، عبر إجراء أبحاث حول النشاط العسكرى فى ثمانى دول فى منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وإمكانية نشوب مرض وبائى فى بعض الدول، واضطرابات دورية وغير عنيفة فى دول أخرى. كذلك يحاول المشروع رصد الابتكارات التقنية التى تشمل رصيد السلوك الاجتماعى المتغير على مستوى المجموعات السكانية المختلفة، كردة فعل أو كاستباق للتحولات، وتقنيات استخراج البيانات، التى تركز على الحجم وليس العمق، من خلال تحديد المعالم السطحية لبيانات استخبارات الإشارات التى تتعلق بهذه الأحداث؛ وتطوير نماذج التوقعات الأكثر احتمالا للأحداث المستقبلية والتى تدمج الأبحاث عالية الجودة والقادرة على تطوير قدرات توقعية رصينة من بيانات الاستخبارات الإشارية.
- ثانيا: مشروع ساج SAGE أو "الاستباق المتآزر للأحداث الجيوسياسية": وهو يسعى للتنبؤ بالأحداث المستقبلية من خلال إدماج البشر من غير الخبراء والقادرين على استخدام "التعلم الآلي" فى الذكاء الاصطناعي، من أجل إنتاج تقديرات ذات جودةعالية حول ما قد يحدث. كما يسعى المشروع إلى تطوير تقنيات التوقع والقيام بتنبؤات بناء على توظيف أكبر عدد من المستخدمين من البشر. كما يستهدف المشروع المساعدة فى الحصول على تنبؤات كمية، من خلال استخدام نماذج التعلم الآلي، التى تتمثل فى خرائط السلاسل الزمنية، التى هى سلاسل بيانات ومعلومات تاريخية، تشير إلى الاتجاهات.
- ثالثا نموذج إمبرز EMBERS: ويستند النموذج إلى التحليل اللغوى لكم هائل من البيانات، يتم جمعها من مختلف المصادر، مثل مواقع التواصل الاجتماعى والصحف والتقارير الحكومية، وذلك بهدف "إثراء المحتوى"، ومن خلال تفكيك وتحليل النصوص واستخراج أصولها ودلالاتها، وتحديد الأنماط الشعورية للكلمات المستخدمة فى سياقها. ويؤخذ على هذا النموذج أنه يقتصر حتى الآن على اللغة الإنجليزية، وقد لا تفلح ترجمة النصوص من لغات أخرى إلى تحديد الدلالات الشعورية لبعض للكلمات الأصلية، كما قد لا يمكنه التعرف إلى الدلالات الشعورية للكلمات المترجمة. كذلك، اقترنت التجارب التى طبق فيها هذا النموذج على بعض طلاب قسم علم النفس فى جامعة فلوريدا فى المرحلة العمرية من ١٨-٢٠ عاما، بكل ما يحملونه من خصائص ديمغرافية وثقافية واقتصادية. وبشكل عام، أوضح الاختبار أن الدلالات القيمية والشعورية والثقافية للكلمات المستخدمة تعكس أنماطا معينة مرتبطة بالدين المسيحى والديمقراطية والقيم الليبرالية. وبالتالى فالبنية اللغوية المصمم عليها البرنامج قد لا تتناسب مع أنماط ثقافية ولغوية أخرى، بل إنها قد لا تستوعب الخطاب المرتبط بالحركات الاجتماعية الجديدة فى الغرب، مثال ذلك المرتبط بالحركات المدافعة عن المثلية الجنسية.

ويخلص العربى أن الاستباق وإصدار التنبؤات، سيستمر كجزء أصيل فى عمل الاستخبارات الحديثة، ومعيارا للحكم على إخفاقها أو نجاحها فى الحفاظ على الأمن القومى ومصالح الدول. وهنا يمكن الإشارة إلى عدة حقائق، على المحللين وصناع القرار وغيرهم التعاطى معها.

- أول هذه الحقائق هى أن وقوع المفاجآت سيكون أمرا حتميا؛ ولا تعنى قدرة محللى وأجهزة الاستخبارات على الوصول إلى معلومات سرية أنهم بالضرورة سيقضون على عنصر المفاجأة، سواء عى المستوى التكتيكى أو الاستراتيجي.
- الحقيقة الثانية هى أن عناصر القصور البشرى ستظل قائمة، سواء كانت فى شكل تحيزات إدراكية أو أحكام قيمية أو تصورات خاطئة. فالاستخبارات، كالسياسة والحرب، هى عمل بشري. وبالتالي، من الضرورى التفكير فى وظيفتها من هذا المنطلق بدلا من محاولة التوصل إلى اليقين الكامل الذى لا يتلبسه أى شك أو خطأ، أو ترك الأمر للآلة كى تقرر.
- أما الحقيقة الثالثة، فهى أنه فى ظل التوسع فى الاعتماد على المصادر المفتوحة، فستزداد صعوبة آليات التحليل البشرى والآلى على السواء، فى معالجة وتحليل البيانات ومحاولة بناء معنى منها، مع اتسام هذه البيانات بالتحيزات والعاطفية والخداع والتلاعب .فى ظل فوضى البيانات، التى يتصف بها العصر الحالى، فعلى أجهزة الاستخبارات بذل جهد إضافى فى التفسير والشرح والتأكد من الحقائق الأساسية للتطورات، التى تعرض للدولة وصناع قرارها.

وبالتالى سيكون على هذه الأجهزة إجراء البحوث الأساسية حول القضايا الجديدة أو الناشئة، وإعمال الفكر التأملى والاستشراف فيما يمكن أن يطرأ فى المستقبل من تحديات. لذا سيظل تطوير العنصر البشرى هو الضمان الرئيس لقيام هذه الأجهزة بدورها على أكمل وجه، وبعد هذا يأتى الدور المساعد للآلة.

قراءة - محمد الحمامصي

وجهة نظري

لايزال القصف مستمرا

هالة فؤاد

يلاحقنا الخبر المشؤوم كنعيق البوم يزيد إحساسنا بوطأة العجز وقلة الحيلة والضعف .. يزداد غضبنا من صمت عربى مخزى وتواطؤ غربى بغيض .. تسيل دماء الشهداء بينما يخرج العدو لسانه هازئا بالجميع، لا أحد يستطيع وقفه .. لا أحد يستطيع محاسبته. لا أحد يستطيع عقابه ..أمن العقاب، فضرب أكبر الأمثلة خسة ووحشية ودموية وعنفا. ولا يزال القصف مستمرا .. ترتفع أعداد الشهداء والجرحى والمفقودين .. تتضاعف أعدادهم، نحبس أنفاسنا ونحن نتابعها لتبدو أقرب لأقسى بورصة تتعلق العيون بها، وهى تحصى أرواحا بريئة لم ترتكب ذنبا سوى أنها حلمت بوطن حر، وما أخطره من ذنب فى عيون عدو مغتصب لا يكف عن ابتلاع الأرض بعدما يهدم كل ما فيها من بشر وحجر.

لا يزال القصف مستمرا .. أكثر من ٢٥ ألف طن من المتفجرات فى أقل من شهر تساقطت على رؤوس الأبرياء لتحصد أرواحهم بدم بارد .. ما يقرب من عشرة آلاف شهيد، بينهم ما يقرب من أربعة آلاف طفل و٢٣٠٠ امرأة، إضافة لأكثر من ٣٢ ألف جريح .. وآلاف غيرهم من المفقودين ، تمتد أيادى ذويهم باحثة عنهم فى مشهد حزين، بعدماعجزت فرق الإنقاذ عن الوصول إليهم، سدت البيوت المهدمة الطرق لم يملكوا سوى أيديهم وقلوبهم التى تدلهم على جثث أحبتهم الراقدة تحتها .. تتعالى صرخاتهم أحيانا ويكتمها هول الصدمة أحيانا، لكنها فى كل الأحوال تعود لتنطق ألسنتهم بالحمد لله راضية بقدرها، مستسلمة لقضائه واهبة أرواح أحبتها فداء لوطن، بيقين أنه لن يحرر إلا بتضحية كبيرة وفداء.

نتابعهم وهم يواجهون الموت بشجاعة، وجوههم المبتسمة الصامدة الراضية تدمى قلوبنا أكثر ماتوجعها عيونهم الدامعة الحزينة.

لا يزال القصف مستمرا، وتتوالى معه المجازر الوحشية .. من مستشفى المعمدانى إلى مخيم جباليا لمخيم البريج لمستشفى القدس والأندونيسى والشفاء، تستهدفها قاذفات العدو بلا رحمة ، لايكتفى بمذابحه الدموية، لكنه يلاحق الجرحى فى الطرق ليقضى على من تبقى منهم أحياء..وكأنه لا يكفيه خروج هذه المستشفيات عن الخدمة، وكأنه لا يكفيه قطع الكهرباء والمياه والوقود عنها، وكأنه لا يكفيه استهداف الأطقم الطبية وسيارات الإسعاف، وكأنه لايكفيه الحال المأساوية التى وصلت إليها الخدمات الطبية بعدما صارت الجراحات تجرى بدون مخدر بينما يفترش المرضى الطرقات والأرض إثر امتلاء الأسرّة.

يهربون من الموت إلى الموت، يتبجح العدو وهو يلوح بمنشورات تحذير وطلب للإخلاء، وكأنه دليل على براءته وهو يدرك أنه لا مكان آمن فى القطاع، بعدما بات كل شبر فيه هدفا لنيرانه وقذائفه الحارقة.

لا يزال القصف مستمرا، يحصد الأرواح بلا رحمة وسط صمت عربى مخزي، لايملك حكامه سوى كلمات لاتحمل قدرا من الغضب المكتوم لدى شعوبهم العاجزة بفعل القهر ووأد الصوت والفقر المدقع. يكتفى المرتعشة بالشجب والإدانة تبدو المواقف محسوبة حذرة وكأن سيوفا مسلطة على رقبة قائليها.

لايزال القصف مستمرا والمدد شحيحا، عشرات الأطنان الخجولة تدخل على استحياء وبأوامر صارمة وتفتيش دقيق لكنها فى النهاية لا تكفى لسد جوع وشفاء جرح، بل ولا حتى لتكفين آلاف الموتى، قبل أن توارى أجسادهم التراب.

لا يزال القصف مستمرا، تتابعه عيون حكام عالم فقدوا إنسانيتهم وضمائرهم، باتت فى هدنة كتلك التى لا يكفون عن المطالبة بها، لذر الرماد فى عيون الإنسانية، بينما تعطى أيديهم إشارات الضوء الخضراء للعدو لمواصلة جرائمه تحت مزاعم الدفاع عن النفس!.

قانون الغاب الدولى هو السائد .. بعدما فقد قانونهم المزعوم صلاحيته، قانون مبتور الأيدى لا يعاقب إلا الضعفاء، قانون تعترف نصوصه بحق الشعب المحتل فى الدفاع عن أرضه، لكنه فى الواقع يعطى دولة الاحتلال فرصة أن ترتكب ما تشاء من جرائم دون أدنى عقاب أو حساب.

لا يزال القصف مستمرا، ولا يزال الشعب الأبى وحده يقاوم، ينتزع النصر شيئا فشيئا، تبدو المعركة شرسة لكن دلالة النجاح واضحة، خسائرهم مؤلمة وخصمهم قاس يخوض حربا شرسة باعتراف قادتهم. أعداد قتلى العدو تتزايد، استهداف مدرعاته ودباباته.. صواريخ تصل لقلب مدنه صافرات إنذار تصم آذن مستوطنيه فتصيبهم بالذعر، عكس دوى صواريخ الموت التى تحصد أرواح أصحاب الأرض فلا تزيدهم إلا صمودا.

لا يزال القصف مستمرا، ولا تزال الخسائر مؤلمة باعتراف العدو، مبهرة لكل محايد، معجزة بكل المقاييس لكل منصف يدرك أنه لا مقارنة بين إمكانات جيش الاحتلال وما تملكه المقاومة من إمكانات متواضعة.

لا يزال القصف مستمرا، ولا يزال الشعب صامدا يودع شهداءه فى صمت، بينما تمتد الأيدى للكتابة على ما تبقى من جدران: سوف تستمر الحياة بإذن الله ويتحرر الوطن.